

جائزة مؤسسة "ابن رشد للفكر الحر" لعام 2005:  
للمفكر العربي "نصر حامد أبو زيد"

د. فيحاء عبد الهادي

منحت مؤسسة "ابن رشد للفكر الحر"، جائزتها هذا العام، للمفكر العربي الإسلامي المتميز، والمجتهد في أصول الدين، نصر حامد أبو زيد، وذلك لكفاحه المتواصل، من أجل إعادة قراءة معاني القرآن، قراءة مستقلة عن التفسير التقليدي، دافعاً حريته الشخصية ثمناً لذلك. وهو يقيم الآن في منفاه خارج وطنه، ويشغل كرسي "ابن رشد"، في جامعة الإنسانيات، بمدينة أوترخت الهولندية. تسلم المفكر الجائزة شخصياً، يوم الجمعة، الموافق 25 تشرين الثاني، من العام 2005 في برلين.

تم اختيار تاريخ تسلم الجائزة، بالتوافق مع ذكرى وفاة المفكر العربي الكبير، الفيلسوف ابن رشد، في العاشر من ديسمبر، واحتراماً لحقوق الإنسان، التي صدر بيانها في مثل هذا التاريخ.

جاء تكريم مؤسسة ابن رشد للفكر الحر، للمفكر المصري نصر حامد أبو زيد، في زمانه المناسب كما أعتقد؛ إذ تشتد الحاجة، في هذه الحقبة الزمنية المظلمة، إلى حركة تنويرية، تخرجنا من حالة الجمود الفكري التي نعيشها، وتحاول أن تستجيب لأسئلة العصر، وتحدياته الفكرية. والجائزة تعيد إلى أذهاننا منزلة المفكر ابن رشد، في التاريخ الإسلامي، ثم منزلة من فازوا بهذه الجائزة العلمية الرفيعة، وموقعهم وإسهامهم، من الشخصيات العربية، التي تلعب دوراً في دعم الفكر الحر، والديمقراطية في البلاد العربية، وآخرهم: نصر حامد أبو زيد.

كان ابن رشد الأندلسي، مفكراً من طراز فريد، دافع عن العقل، في كافة أعماله. درس الطب والفقه والعلوم الشرعية والرياضة. اشتهر بالفلسفة بجانب القضاء، إذ شغل موقع قاضي القضاة بأشبيلية، في العام 1171م، بالإضافة إلى حبه للأدب. عاش ابن رشد في مرحلة انحطاط فكري وسياسي، جعلت من العلم والاجتهاد والفكر والاشتغال بعلوم الأوائل، جريمة يتهم صاحبها بالزندقة؛ الأمر الذي اضطر الخليفة المنصور، الأموي الأندلسي، إلى النزول تحت ضغط الفقهاء الرجعيين والغوغاء، ومحاكمة ابن رشد، الفيلسوف العالم وقاضي القضاة. ودون الاستماع إلى دفاعه عن نفسه، صدر الحكم بإدانته وإحراق كتبه، في الطبيعة، والفلك، والفلسفة.

وتدفعنا التهمة التي حوكم ابن رشد لأجلها، وهي: اشتغاله بعلوم الأوائل، وشرح كتب أرسطو الفلسفية؛ إلى رؤية العامل الذي يجمع ابن رشد، والفائز بجائزة مؤسسة ابن رشد هذا العام، المفكر المصري، والباحث في علم اللغة العربية، والعلوم الإسلامية: نصر حامد أبو زيد.

أراد المفكر أن ينفذ إلى جوهر الدين، وأن يبعده عن التقليدية والجمود، متبعاً طريق التنويرين الأوائل، أمثال محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ثم أبحاث عائشة التيمورية، وزينب فواز، وقاسم أمين، ورشيد رضا، وعميد الأدب العربي، طه حسين. آمن المفكر أن الطريق لامتلاك التراث العربي، يكون بالفهم النقدي لتقافتنا، ودعا إلى منهج إسلامي جديد للتأويل.

وفي كلمته، بمناسبة حصوله على الجائزة، قال إنه يريد أن يشرك الحضور الكريم في همومه البحثية، وفي هموم أسئلتنا المعاصرة: هل يتوافق الفكر الإسلامي مع الحداثة؟ وهل يتعارض

الإسلام مع أنظمة الحكم الحديثة القائمة على التعددية والديمقراطية؟ هذه الأسئلة التي شغلت رواد النهضة الحديثة منذ القرن التاسع عشر حتى الآن.

"في هذا السياق الملتبس يمكن فهم الخطاب الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو الخطاب الذي يمثله بصفة خاصة كل من "جمال الدين الأفغاني" (1839-1897) و"محمد عبده" (1845-1905). لا ينبغي أن يدهشنا في هذا الخطاب امتزاج السياسي بالفكري، وانشغال الفكري بضغوط التحدي الأوروبي سلبيًا وإيجابيًا، ويجب أن نركز اهتمامنا على محاولة ذلك الخطاب فتح الطريق للنهوض بكافة السبل والطرائق، انطلاقًا من التسليم بحقيقة "التخلف" و"الركود" التي كان يعانيتها الواقع الإسلامي".

تحدث عن الخطاب الإصلاحية التقدمي للشيخ الأفغاني، ثم عن محاولاته فتح باب الاجتهاد في الإسلام، تلك المحاولات التي "أنت أكلها على يد عبده، سواء منها ما يتصل بالمساواة بين المسلم وغير المسلم، أو بالمساواة بين الرجل والمرأة. أقام عبده هذه المساواة على أسس التأويل العقلاني للنصوص الأساسية، ومثله مثل "الأفغاني" انخرط "عبده" في الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه من مفكري الغرب وكتابه". وردوده على المسيو "جابريل هانوتو" السياسي والمؤرخ الفرنسي (1853-1944)، فيما ذهب إليه من اتهام "الإسلام" بأنه علة تخلف المسلمين".

وتحدث عن ولادة تيارين، في القرن العشرين، ما زالوا يتصارعان حتى اليوم: تيار الإصلاح الليبرالي، والتيار السلفي التقليدي. ذكر من أصحاب التيار الليبرالي: قاسم أمين (1863-1908)، الذي كرس جهوده لقضية تحرير المرأة، ومنصور فهمي، ومحمد أبو زيد، وعلي عبد الرازق، وطه حسين، كما ذكر من الليبراليين العرب: الطاهر الحداد التونسي: "جدير بالذكر أن أفكار "الحداد"، التي ناله بسببها ما ناله، كانت هي الأفكار الملهمة، لمجلة الأحوال الشخصية التونسية، التي صدرت في تونس، عام 1957، فحققت للمرأة التونسية مكاسب غير مسبوقة".

أشار أبو زيد إلى عامل أساس، ساهم في التراجع العام للخطاب النهضوي: هو غياب نقاش علمي حول قضايا الفكر الديني، مبيناً استخدام الدين في الصراعات السياسية الاجتماعية، وليس للغاية الدينية الخالصة.

"يتحول الصراع السياسي الاجتماعي إلى صراع معني، ويبدو الأمر أننا نتقاتل حول الدين؟ والسبب أن نظام حياتنا السياسي هو الذي يحتاج أولاً إلى التجديد، نحتاج إلى "الحرية"؛ لأنها شرط أولي لممارسة التفكير، الذي هو بدوره أداة التجديد والتغيير. نحتاج للديمقراطية، وجوهرها الحرية الفردية، لا مجرد إجراء الانتخابات، وتغيير الوجوه. في مناخ ديمقراطي يحمي حرية الفرد وحقه في الاختيار، يمكن الحديث عن حرية البحث العلمي والدرس الأكاديمي في حقول المعرفة كافة، وفي حقل الدراسات الدينية بصفة خاصة. ولعله من الممكن حينئذ الحديث عن إمكانية وجود مؤسسات أكاديمية لدراسة الأديان، لا لمجرد تعليم الأديان كما هو الحال في العالم الإسلامي كله. إن البحث في الأديان، تاريخها، بناؤها، لاهوتها، مناهج التفسير وطرائق التأويل، بنية مؤسساتها، الفرق بين الإيمان والعقائد أو الدوجما ... الخ، أمر يختلف اختلافاً جوهرياً عن مؤسسات تعليم الأديان، حيث لا مجال إلا لتعليم العقائد الصحيحة، من منظور المؤسسة، والتميز بينها وبين العقائد الباطلة، من منظور المؤسسة كذلك. وحين تنشأ مؤسسات البحث في الأديان، يمكن تأسيس "علم الأديان المقارن"، وهو علم غائب من مؤسسات تعليم الأديان. في هذه الحالة، ومع تحقق بعض تلك الشروط، يمكن إثارة الأسئلة، وفتح باب النقاش الحر في كل القضايا المكتوبة والمحبوطة، لا المسكوت عنها فقط. يمكن أن يصبح "اللا مفكر فيه"، بتعبير "محمد أركون" موضوعاً للنقاش".

\*\*\*\*\*

أعلن نصر حامد أبو زيد، في نهاية كلمته، تبرعه بقيمة الجائزة إلى مؤسسة ابن رشد، كتحية لها على الدور التقدمي، الذي أخذته على عاتقها، وتمنى لها دوام التوفيق والنجاح، في دعم حرية التفكير، في العالم العربي. وقال في جملة مؤثرة: إن مؤسسة كهذه، نحلم بها منذ سنين، يجب أن نضحى حتى بحياتنا من أجل أن تستمر مؤسسات كهذه.

أضم صوتي، إلى صوت الأستاذ المفكر، في تحية مؤسسة ابن رشد للفكر الحر، وأهنئ نصر حامد أبو زيد، بجائزة ابن رشد، التي جاءت لتعيد إليه الاعتبار العلمي، والمكانة الرفيعة التي يستحقها؛ إذ قرنت اسمه باسم فيلسوف إسلامي عظيم، رفع لواء العقل، وأعلى من قيمة المنطق، كما قدرت جهد التأويل الذي اتبعه الباحث، في أبحاثه وكتبه التي أثرت المكتبة العربية، والفكر الإنساني.